ابرهيم اليازجي

١٢٦٣ — ١٣٢٤ هـ

١٨٤٨ — ١٩٠٦ م

هاجر من حمص أحد أجداد بيت اليازجي سنة ١٦٩٠ ونزل قرية كفرشيما من سواحل بيروت ، وكان أهل هذا البيت على مذهب الروم الأرثوذكس فانتحلوا الكثلكة ودخل بعضهم في خدمة الدولة العثمانية كاتباً فأطلق عليه اسم « يازيجى » أي الكاتب حرفت بعد فصارت يازجي .

ولد ابرهيم في بيروت وظهرت عليه مخايل النجابة في سن العاشرة وكان أبوه الشيخ ناصيف من رجال النهضة العربية الأولى وله مقام عالٍ في الأدب والشعر . وكان لقب الشيخ في لبنان يطلق على الطبقة التي كانت ترتفع عن العامة وتنحط عن طبقة الأمراء .

وتخرج ابرهيم بأبيه في علوم العربية وحفظ القرآن في صباه وأخذ الفقه الحنفي عن الأستاذ محيي الدين اليافي وأولع بالرسم والنقش والحفر وامتاز بجمال خطه . وهو الذي نقش بعدُ أمهات حروف مجلتيه البيان والضياء وحروف المطبعة الأدبية وكانت منها حروف معظم المطابع في الشام ومصر .

وتعلم الفرنسية والانكليزية وأخذ بطرف من الألمانية . وقال أحد مريديه في الكلام على اتقانه الفرنسية انه سمعه يقرأ فصولاً استملح عربيتها ثم تبين ان نظره كان يجول في السطور الفرنسية فيلقيها لسانه بالعربية الفصحى .

قال لي المترجم له : لو كان لي الخيار لآثرت أن أكون رساماً مصوراً الا انني رأيت الأجدر بي الانصراف الى خدمة اللغة العربية حتى لا يُغلق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيتنا بانقراض افراده المعنيين بهذه اللغة فيفوتني شرف خدمتها على ما كان الحظ لأبي في هذه الخدمة ·

انضم الشيخ في أول شبابه الى الجمعية العلمية السورية فألقى فيها الخطب وأنشد القصائد ثم تولى تحرير جريدة النجاح فحبّر المقالات وترسّل ، فكانت هذه الجمعية وهذه الجريدة مدرسته الأولى في البيان والصحافة ·

وعهد اليه الآباء اليسوعيون بتقويم ترجمة الأسفار المقدسة وكانت عربت عن أصلها العبراني واليوناني عدا ثلاث ترجمات عربية كانت أمام من قاموا على تصحيحها ، وكان تعريب المزامير والانجيل مقيداً بترجمة عبد الله زاخر لشهرة نصوصها في المعابد · فقضى الشيخ في هذا العمل ثماني سنين واضطرته معارضة الترجمة على المتن الأصلي الى التبحر في بعض اللغات السامية ولا سيما العبرانية والسريانية وألف في العبرانية كتاب نحو وصرف نسج فيه على منوال النحو العربي وصرفه ·

علّم الشيخ دهراً في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت خلفاً لأبيه فتخرجت به طائفة من الأدباء كانت لهم منزلة رفيعة في الآداب · وفي سنة ١٨٨٤ نشر بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة مجلة « الطبيب » سنة واحدة ثم هاجر الى مصر فأصدر فيها مجلة « البيان » بالاشتراك مع الدكتور زلزل سنة واحدة ، واستقل بعد ذلك باصدار مجلة « الضياء » وقد اطرد صدورها ثماني سنين حتى سنة وفاته · وكانت من أمتع المجلات العربية بجمال أسلوبها وطلاوة عبارتها وطرافة أبحاثها · وفي الضياء ظهرت شخصيته ، كأن ما كان مضى من حياته العلمية في لبنان قبل أن تصح عزيمته على نشر مجلته في مصر كان دور استمداد تجلى بعده نبوغه على أكمل حالاته ، وما سبق له من نشر آيات علمه وأدبه كان كالمقدمة قدمها بين يدي كتابه الشامل ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

روفي الطيب واليان والضياء توفر على نشر أبحاث متسلسلة استخرج من بعضها كتيباً برأسها مثل «لغة الجرائد» . ومن أبحاثه المتعة «أمالي لغوية» ، «أغلاط العرب» ، «أغلاط المولدين» ، «اللغة العامية واللغة الفصحى» ، «اللغة والعصر» ، «أغلاط لسان العرب» ، «المجاز» ، «الشعر» ، «التعريب» ، «العلوم عند العرب» الى غير ذلك من المقالات والأبحاث المتعة . ومن كتبه «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد» . ومنها اختصار أو تصحيح بعض كتب والده كمختصر «نار القرى» و «مختصر الجمانة» وشرح ديوان المتنبي سماه «العرف الطيب» . والى ذلك يشير في آخر هذا الديوان اشارة تنم عن بر بوالده قال : «وانا أبقيت عنوان الشرح باسمه ـ باسم أبيه ـ رعاية لكونه هو واضع الأصل فلم أوثر ان أتطفل عليه في نسبة الكتاب ، وان تطفلت عليه في التأليف . واني لأرجو ان يكون قد وهبني الله السلامة في ذلك كله ، وأنزلني من هذا الشرح منزلة توجب استدرار الرحمة على واضعه ، ولا تكون مدرجة لنقص برّي به بأن أصر عليه تبعة تلزمني دونه او ينسب اليّ فضل هو أحق به مني . ومعاذ الله أن أدّعي لنفسي في جنبه فضلاً أو علماً فانما أنا اهتديت بمناره واقتديت بآثاره ، واني لا علم لي الا ما علمني» .

وصحح الشيخ كتباً كثيرة ومنها «تاريخ بابل وأشور» و «نفح الأزهار» و «دليل الهائم» و «نخب الملح» و «العقود الدرية» في شرح شواهد المختصر و «رسالة الغفران» للمعري و «الفرائد الدرية» وهو معجم عربي فرنسي ـ وتقد القسم الذي ترجمه باربيه دي مينار من مستعربي الفرنسيس من كتاب «مروج الذهب» للمسعودي كما نقد تكملة المعجمات العربية لدوزي .. ومعجم «محيط المحيط» للبستاني وسماه الحواشي ، ومعجم «أقرب الموارد» للشرتوني ، و «الدرة اليتيمة» لشكيب أرسلان ، وناقش أرباب المقتطف فيما وقع لهم من الأغلاط وغير ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصرف شطراً من حياته في تأليف معجم سماه «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» قال انه شرع فى وضعه مقتصراً على الفصيح دون المولد والمحدث في الاصطلاح لأنه رآهما طرفين لا يلتقيان ولا تؤلف منهما حلقتا بطان ، فضلاً عما يقتضي بحث الطارئ من التجرد والجهد ، واخلاء الذرع للبلوغ الى باحة القصد ، فلا بد من افراد هذا القسم في كتاب مخصوص يحاط به بعد مراجعة الكتاب والنصوص قال : وقد وضعت الكتاب على نسق لم أكن متابعاً فيه ولا مقلداً ، ولا متحدياً ممن سبقني أحداً . فاني اعتبرت فيه جانب المعاني في كل مادة فقدمت منها ما حسبته الأصل في ذلك التركيب ثم ألحقت به ما تفرع عنه من طريق المجاز الأقرب بالأقرب الى أن تنقطع سلسلة الترتيب ، وما بقي بعد ذلك مقتضباً من ذلك النظام ذيلته في آخر المادة وضمنته المشهور من الأعلام ، وكل ذلك على أسلوب مختصر اطرحت فيه الوحشي من اللفظ والمهجور في استعمال الفصحاء . وتجنبت ما يستحى منه من ألفاظ السوءات ، وما يضاف اليها مما تبذأه نفوس الأدباء ، وكنت قد بلغت في تسويده الى آخر حرف الحاء المهملة مما يقدر بالربع أو يزيد اه .

أولع الشيخ ببلاغة القرآن . حدثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر انه كثيراً ما كان يقول لتلاميذه اذا تصدّوا للكتابة ونشر المقالات أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون ، أو ما هذا معناه . فمن كان هذا اعتقاده لا يعقل أن يطعن ببلاغة الكتاب العزيز وفصاحته على ما اتهمه بذلك بعض الطوائف من أنه عارض القرآن وحط من شأنه في رسالة له نحلته اياها وما هي الا من أقلام بعض دعاتهم .

وكان أعداء الشيخ من الفريق الذي أصلاهم الشيخ نار نقده مثل صاحبي المقتطف وسعيد الشرتوني وشكيب أرسلان وجماعة اليسوعيين ، وعلى مطبوعات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هؤلاء حملة شعواء وكثيراً ما عمد في حوارهم الى السخرية وربما انتهى بعض هذه المناقشات بالمهاترة أحياناً وأدى بعضها الى ما كان يودّ أحباب الشيخ لو تصوّن عنها . وقيل ان الشيخ كان ينشر أشياء باسم بعض تلاميذه أو باسماء مستعارة غيرهم فيما لا يريد أن ينسب اليه . وهذا أيضاً لا يخليه من تبعة خصوصاً وهو في بعده عن اللغو والتحلي بالفضائل النفسية المثل الأعلى . بيد أنه جُبِل على حب المطارحات والمناظرات وبها تجلت ملكته في البيان هذا التجلي الرائع ، اذا أُريد التنظير بين كلامه وكلام معاصربه وفي المناقشة التي دارت بينه وبين العلامة احمد فارس كان أكثر اعتدالاً مع أنه كان شاباً وخصمه كان شيخاً .

كان الشيخ يألم ممن يرتكب غلطاً لغوياً ألمه ممن يسيء اليه مباشرة فما كان يغفل عن نقد معظم ما كان يهدى اليه من الكتب الجديدة لتقريظه والتنويه بصاحبه ، وكل ذلك حتى لا يعبث باللغة عابث و « كان أقصى أمانيه أن يعيد الى اللغة بهجتها الأولى ويرد الناشئة من كتاب العصر الى النهج القويم من الاحتفاظ بقواعدها وأصولها المقررة في أمهات المعاجم ، وكتب البلاغة المعروفة بصحة التعبير وفصاحة الألفاظ ، والا يعدل الى المولد الدخيل الا بعد طول البحث والتنقيب ، واجماع أهل العلم الواسع من المحققين ، وبعد اليأس من الوقوع على الفصيح الأصيل . »

ومما كان يحزنه ان اللغة لا تفي بمطالب العلم في هذا العصر ولذلك وضع الفاظاً لمسميات افرنجية سرى بعضها على أسلات أقلام الكتاب والصحافيين في حياته ، وعرّب بعض المصطلحات تعريباً صحيحاً ولو طال به الأجل لاستكثر من كل ما يفيد اللسان العربي حتى يدانى بمادته العلمية لغات العلم عند الافرنج ويؤدي على أيسر وجه معاني الألفاظ الجاري استعمالها في العلم والاجتماع والفن والصناعة .

قال لي مرة وأنا أسأله رأيه في اللغة العصرية : اني مغتبط بأن اللغة علت بلهجتها ، وقلّ فيها الابتذال الذي كان لها أول نهضتها ، ويتخللها الآن من الفصيح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما لم يكن يعهد فيها في عصور الانحطاط . وكيف لا يفرح لسمو اللغة وهو من أول العارفين بجرس الألفاظ ورنتها وخفتها وثقلها ، وادراك أجدر المواضع باستعمالها . درج حياته على تصفح كتب البلغاء والتقاط ألفاظها وتراكيبها الجميلة يتمثلها ويدمج في تضاعيف كلامه ما تقضي الصناعة بادماجه ، يقرنها الى أمثالها مما وعاه صدره ، وبهذا ارتفعت كتابته عن كتابة غيره اذ توفرت لها المادة والقوالب وعرف أساليب الكتاب على إختلاف العصور فبعد عن مستوى غيره . يعين على ذلك ذوق سام جمع بين أدب الافرنج والعرب . هذا وهو لم يعالج من فنون الانشاء الا ما أخذ من نفسه ، ولا تتعلق همته على الأكثر بغير الموضوعات الأدبية والتاريخية القريبة المأخذ مما لا يتعاصى تفهمه على من شدوا شيئاً من الآداب .

كانت مجلة « الضياء » كتابه الأم حفلت بالفوائد الأدبية واللغوية حتى ليستخرج منها عدة كتب ، ومن أهم ما ينتزع منها مجموعة جميلة من نقده الأدبي وسخرياته . يستخرج منها أسفار نافعة حري بالناشئة أن تجعلها سمرها في خلوتها وتتخذها أصولاً للبلاغة . وفي مجلته هذه يتمثل لعينيك جهده في انشائها وتوفره على اتقان أبحاثها حتى لقد صدته عن النظر في سائر مؤلفاته ومنها معجمه ، ويبدو لناظرك ان صاحبها قد نقى اللغة وغربلها وطحنها ونخلها وعجنها وخبزها فجاء منها بكل لقمة كريمة وحلواء لذيذة .

وكان باب النقد مما يحبب مجلة الضياء الى القراء ذلك لأنه كان على مثل اليقين ان أبحاثها لا تخلو من جفاف كان يداويه بشيء من الفكاهات والأقاصيص يكتبها له أهل هذا الشأن من تعريبهم او تأليفهم . والناس أميل الى تلقف ما يسليهم منهم الى الجنوح الى ما يثقلون منه ، ولو بحصر أذهانهم دقائق معدودة ، والبحث في الآداب مما يثقل على السواد الأعظم وهم لا عهد لهم بالنظر في هذه الأبحاث ويعدونها من الأبحاث الجامدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكانت الضياء تبرز الى قرائها في حلة لبنانية بروحها وموضوعها . اذا قرأها القاريء تراءى له انها تكتب في لبنان وتطبع في مصر . وترى منشئها فيها وقد التف حوله تلاميذه وذوو قرباه ومواطنوه من الشاميين يؤازرونه في انشاء مجلته فيما يتقنون من الموضوعات فلا يكاد المتأمل يقع بينهم على كثير من النابهين المصريين ينشرون أبحاثهم في مجلته . ولعلّ العلة في ذلك ابتعاد الشيخ عن الاختلاط بالناس ، فأكثر الشاميين في مصر يعيشون بين الجالية السورية لا يمتزجون بالمصريين كثيراً - على انه يندر يومئذ في المصريين رجال من الطراز الذي تعجب صاحب المجلة كتابته وبحثه .

لم ينصرف الشيخ الى الشعر انصرافه للنثر ولذلك يعد من المقلين منه ، استخدمه في أغراض اجتماعية على الأغلب ، كأن يذكر العرب بمجدهم او يدعو القوم الى كسر قيود الاستبداد وتطلب الحياة الحرة والقضاء على من وقفوا عثرة في سبيل نهوض العرب وكانوا سبباً في تدنيه وخموله .

فمن شعره في هذه المعاني :

وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في أجفن العلّيا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم ... وان جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديماً ... بأيادي ليس تنكرها الشآم
وفي أرض الحجاز لنا فيوض ... يسيل لها الى اليمن انسجام
وفوق الأندلوس لنا بنود ... لهامات النجوم بها اعتمام
وسل في الغرب عن آثار فخر ... لها في جبهة الزمن ارتسام

وله السينية المشهورة ومطلعها :

دع مجلس الغيد الأوانس ... وهوى لواحظها النواعس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى أن يقول :

فالشر كل الشر ما بين العمائم والقلانس
والخير كل الخير في هدم الجوامع والكنائس
ما هم رجال الله فيكم بل هم القوم الأبالس
يمشون بين ظهوركم تحت الطيالس والقلانس
أيُّ النعيم لمن يبيتُ على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً أبداً لذيل الترك «بائس»
ولمن أزمته بكف — عداه يظلم وهو آيس
ولمن تباح حقوقه ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى أوطانه خِرَباً كأطلال دوارس

وقال في الترك :

فالترك قوم لا يفوز لديهم الا المشاكس
أولستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابس
عمت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها النهارس
حال بها طاب التبسم للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدما وسفكها للجور حابس

ومثلها قصيدته :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم يعرض بحكام تلك الأيام فيقول :

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا
بالله يا قومنا هبوا لشأنكم فكم تنادبكم الأسفار والخطب
ألستم من سطوا في الأرض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
فمالكم ويحكم أصبحتم هملاً ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وأظن هذه القصيدة هي التي اتهم بها أحد الأدباء يومئذ وحبس بها سنة كما قال لي الشيخ رحمه الله . وهذه القصائد تنادي بأنه كان حراً يدعو الى الحرية وعربياً يبكي لمجد العرب ويحاول أن ينزعوا من ربقتهم حكم العثمانيين وينجوا من الاستعباد . وهو ما كان يطيب له ادعاء هذه القصائد لأن قصده مجرد عن الغاية فلا يطمع في الظهور والتمجد . ولو ظهر عليه أدنى أثر من الانكار على الدولة لناله من العقوبات أفظعها فهو بعقله وحيطته يتقيهم ولا يرتكب مالا يرضيهم على ما كان يتقي أهل بيئته ، وبيئته كانت جد متعصبة جامدة ، وكنت تلمح حرية فكره تلمع أشعتها من خلال ما ينشره ويتجلى للناقد البصير أنه معلم حكيم يرمي الى تهذيب النفوس بكل ما لديه من الذرائع ، ويحاول اخراج أمته الى طريق سليم ليدخلها في غمار الأمم الناهضة وهو الذي يعرف مبلغ أمته من معاونته ومعاونة أمثاله ولذلك لم يجاهر بدعوته لأن الأمة خلت من هذه المعاني وما كانت تفكر الا في الساعة التي هي فيها .

وما سلم الشيخ من عيوب الشعراء المتأخرين فقد كان أصحابه وجيرانه وأهله يريدونه على أن ينظم تواريخ لأضرحة موتاهم ، وكان يرجى ألا يقبل اضاعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقته فى مثل هذه المنظومات ومنها المدح والرثاء ، وما كان الحامل له على نظمها الا ارادة التخلص من تعجيز المعجزين وقد اعتاد الناس ألا يرضوا عن الشاعر الا اذا مدح أحياءهم ورثى موتاهم . وقد أثرت له رسائل لك أن تدعوها من جنس الاخوانيات كان يبعث بها الى أحبابه أو الى ارباب الوجاهة لدفع مغرم وجلب مغنم لمن يتوسطه ، يكتبها من حاضر الوقت لا يتعمل فيها ، وأكثرها مسجوع اذا تلوتها تراءى لك انه ينسج فيها على منوال الهمذاني والخوارزمي والصاحب . ومن شعره الجميل يذكر حمص منبت أجداده :

وسقى الله أرض حمص وحيت نفحات الرضا خصيب ثراها
هي فردوسي القديم ومنها ثمرات الحياة كان جناها

ومنه :

ليس الوقيعة من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
اني أضن بعرضي أن يُلم به غيري فهل أتولى خرقه بيدي

وقال في ساعة دقاقة :

ومحصية أعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لها جرس الحزن
فيابنت هذا الدهر صرت بسيره فهل أنت دون الناس منه على أمن

وقال في عود الطرب :

وعود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصفو لديه المجالس
تمشقه طير الأراكة أخضراً وحنّ اليه ريشه وهو يابس

وقال في بعلبك :

يابعلبك غريبة الأزمان والعهد والصناع والبنيان
لم تُبقك الأيام في حدثانها الا لتظهر قدرة الرحمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال :

تعجب قوم من تأخر حالنا ... ولا عجب في حالنا ان تأخرا
فمذ أصبحت أذنابنا وهي أرؤس ... غدونا بحكم الطبع نمشي الى الورا

وقال في الحكم :

حياة أمرُّ العيش فيها مذمم ... وناس بها قلب الخليّ متيم
سقت كل قلب كل يوم مشاربا ... توهم فيها لذةً وهي علقم
وما الأرض الا قفرة زأرت بها ... أُسود المنايا حولنا وهي حوَّم
لها كل يوم بيننا كل منذر ... ينادي علينا مسمعاً وهو أبكم
تنبهنا بعضاً ببعض فتنثني ... وأجفاننا في غفلة اللهو نوَّم
خلت دونها ثم الحصون فلم تكن ... لساكنها من غارة البين تعصم
وأصبح من قد كان يرهب بأسه ... يناح عليه بعد حين ويرحم
تراب من الأرض استوى تحت صورة ... تلوح عليها مدة ثم تهدم
اذا ما دفعنا للبلية مرة ... ولم ننتفع بالحزن فالصبر أحزم
جرى قدر المولى بما شاء واستوى ... لديه جزوع في الأمى ومسلّم
وليس لنا من مطمع فات نيله ... اذا كان ما نبغيه ما ليس يغنم
وما كان ما لا بد منه مؤخراً ... يهون لديه الرزء وهو مقدم
وما الفرق في الحالين الا هنيهة ... تمر سريعاً والقضا متحتم

ومن قوله في الحكم أيضاً :

وانما نحن في دار اذا اعتبرت ... ليست سوى مأتم ناحت به البشر
في كل يوم أناس فوقها جمعوا ... على أناس طوتهم تحتها الحفر
بئس الحياة التي ما زال واردها ... يمازج الورد في كاساته الصدر
حالان احداهما مملوءة حذراً ... مما يليها وأخرى فاتها الحذر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال في مصير الأرض من مقالة :

واعتبر ذلك في الأرض وما يؤلف أديمها من الجواهر ، ويشتمل عليه جوها من العناصر ، وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء ، والحيوان السارح على وجه الغبراء ، والسابح في لجتي الماء والهواء ، تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها ، ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتد آخرها الى أولها ، بل ترى الأرض نفسها عرضةً للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف ، والأمواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تصدع صخورها ، متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار ، الى ان يأتي يوم تنحل فيه الجبال ، وترسب في درك البحار ، ثم لا تزال المياه تسحل وجه الأرض حتى لا يبقى فيه أمت ولا انحناء ، وحتى يغمرها الماء من كل ناحية وقد عاد سطحها مستوياً تحت الماء كاستواء سطح الماء ، فعادت كما كانت في اول خلقها ماء غامر وكون بائر ، قد خلا من عالمي البر والهواء ، ولم يبق فيه من ذوات الحياة الا عالم الماء .

« هذا اذا لم تصب الأرض قبل ذلك بالهرم ، وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم ، ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا حيوان ، ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران ، على حد ماتم ذلك في القمر حتى لم يبق فيه وشل لمرتاد ، وحتى تجرد من ثوب هوائه او كاد ، وحتى اصبح قفراً هامداً لا ينبت عليه شجر ، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر . بل لو بقي هواء الأرض وهو خال من بخار الماء لجمّد البر وسطحها تجميداً ، وانقبض الأحياء من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عموداً . ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقاً على توالي الحقب ، الى ان تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب ، فتدقها الثلوج حيث لا تنكشف رمسها الا يوم التلاقي . وتخط يد القضاء على أديم الأرض سجان الحي الباقي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وهذا اذا لم تهرم الشمس فتقلب نارها برداً ، ولكنه برد بغير سلام ، فتهيم السيارات والأقمار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام ، ويومئذ لا يبزغ الصباح فيذهب آفاق المشرق ولا يقبل الماء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق ، ولا يكون اذ ذاك كسوف ولا خسوف ، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ، ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالأمس ، وقد التف بكفن من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس . ويومئذ تجمد البحار فلا يكون موج يتنفس ، ولا سحاب ينبجس ، ولا سيل يتدفق ، ولا جدول يترقرق . وتركد حركة الهواء ، فلا تهب شمال ولا صبا ، ولا تجري نسمة على الوهاد والربى . وأنتم والشمس مصدر الحركة في العوالم ، وقوام الحياة لكل قائم ، فاذا هبت الريح فالشمس هي التي تهب ، واذا دبت النسم فالشمس هي التي تدب ، واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر ، واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر ، ألا وهي الشمس التي تجري في الأنهار ، وهي التي تغرد في الأطيار ، وهي التي تزهر في الرياض ، وهي التي يسمع حفيفها في الغياض ، وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها ، واذا ماتت الأفئدة فمحال أن تعيش أجسادها . ا ه .

وبعد فلم ينبغ لبنان أكتب من الشيخ فيما أعتقد ولا أجزل حظاً منه في علوم البيان وندر أن كملت لغيره ما كمل له من عبقرية صقلتها العناية أي صقل ومن قام بواجبه في خدمة اللغة وسلك كل طريق نافع في غرضه . فقد قال فيه الأستاذ الامام محمد عبده انه أكتب من ادبب بكثير بل هو أكتب المعاصرين فيما أرى . وناهيك بها من شهادة . وقال فيه الأستاذ شيخو ان كلامه يظهر لقارئه كأنه المرآة الصقيلة أو الماء الزلال ، فكان لا يزال يردد النظر فيما كتب وينقحه مراراً حتى يخرجه كالبرد القشيب والخميلة الناعمة .

وقال الأستاذ عبود « ان انشاء الشيخ ليس بالانشاء المتحق العالي اذا استثنينا صدر مقالتي الزهرة والقمر وفيهما ظهر أنه ناثر فني من الطراز الأول فخياله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طريف فيها ومجمعه أنيق ظريف ، كأنه الشعر أو فوق الكثير من الشعر ، وقد كتب جل نثره بأسلوب العلماء والمؤرخين والكتاب الاجتماعيين ، وتضلعه من اللغة وادراكه أسرارها أدى به الى العدول عن المجاز ، وله فضل على النهضة بتعابيره الصحيحة ، وكان له أبعد الأثر في توجيه كتاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم ، ولئن كان في انشائه جفاف أساليب العلماء فلا تنس ان فيه صحة وشدة أسر » .

كان صمت الشيخ صمت العلماء وكان على جانب عظيم من الوقار تقرأ في طلعته جلال العلم وجمال الأدب وتحس في كلامه كأنك في مجلس فنان أفنى أيامه في التحقيق والتدقيق : عقل عالم ، وحكمة حكيم ، وعين فنان ، وذوق شاعر .

كان الشيخ مأخوذاً بعلمه مخلصاً له ، لم يتعلق من الحياة بغير المعنويات ، دار حياته في دائرة ما حدثته نفسه أن يتخطاها قيد أنملة فلم يخرج فيها عن نشر العلم والآداب ، وخدم لغة القرآن خدمةً لم يوفق الى أكثر منها أكبر علماء الاسلام ، وعاش مقلاً متقشفاً لم يطرق أبواب الملوك ولا رجال المال ليستعين بهم على ما يضطلع به ، ومع أنه سبق للدولة المصرية قبله أن عاونت اللبنانيين العظيمين بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق من رجال النهضة الأولى فهو لم يجد من حكومة مصر العربية عوناً وغفل أغنياء المصريين والشاميين عن الأخذ بيده . وكان يشير في الأحايين الى هذا النقص في أخلاق الأمة ويردد ان الأغنياء وارباب الشأن بمعزل عن نشدان المطالب العالية والمشاركة في الأمور النافعة .

عاش الشيخ عزيز النفس وما أسف الى ما أسف أكثر علماء عصره ومات لم يتزوج ولم يعرف سعادة البيوت وعطف الولد . ومن أغرب ما يسجل أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حكومة لبنان اقترحت عليه أن توليه « قائم مقام » على زحلة وهو عمل يقوم به بعض تلاميذه على أنه لم يخلق للادارة ولا للسياسة . وكافأته الجالية السورية في البرازيل بعد وفاته بأن صنعت له تمثالاً نصبته بيروت في احدى ساحاتها .

قلت فيه يوم نعيته في جريدة « المؤيد » : قضى حياة المتعلم والمعلم والعالم على أكمل وجوهها ، وبرز خاصة في علوم العربية على أقرانه فعد من آحاد زمانه . نشأ في بيت كان ربه يتغنى ليله ونهاره بالشعر والأدب فشب وشاب فيما نشأ عليه وأنشيء له . وناهيك بمن يرضع اللغة من صغره ويعاني الأدب في جميع أدواره ، لا يصل الى سمعه غيره ولا تقع عينه على ما سواه والجميع مستحسن له ومصدق ومؤمن على أقواله ومصدق ... ولا بد لمن يتمحض للانتقاد أن يلاقي ما لقي الشيخ اليازجي فيصاب ويصيب . والناس لم يألفوا الانتقاد وأكثر المتقدمين يعدون الانتقاد ثلماً لشرفهم واسقاطاً لأقدارهم ، والناقد كيفما كانت الحال لا تصفو له القلوب » .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net